فى سبيل اللغة القومية

بقلم محمد مهدى علام

المفتش بوزارة المعارف ، وعضو المكتب الفنى

هذه ترجمة لفقرة كتبها مؤلف أمريكى من علماء الفقه الدستورى ، فى فصل عقده - قبل الحرب العالمية - عن العاهلية النمساوية . ولعل فى هذه الكلمة ردا بليغا على المستهترين من المصريين الذين يرون فى الاحتفاظ بلغتهم القومية خروجا على أساليب المدنية الحديثة ، وردا على أولئك الذين رحبوا بجهود المجمع اللغوى الملكى لأنهم ظنوا أنهم وجدوا فيها مرتعا خصبا للدعابة والتهكم ولو انتقصوا فى ذلك لغتهم ، وجرحوا بذلك كرامتهم القومية .

يقول الأستاذ لورنس لوَل فى كتابه : « الحكومات والأحزاب فى القارة الأوربية » (١) عند الكلام فى العاهلية النمساوية وتألفها من شعوب وأجناس مختلفة بلغ بها الأمر عند اجتماع ممثليها فى دار النيابة « الريشذرات » أنه رؤى من الضرورى استخدام ثمان لغات مختلفة لحلف اليمين الدستورية ، مع ملاحظة أن هذا العدد لم يشمل إلا جزءا صغيرا من اللغات واللهجات التى كان يتكلم بها سكان تلك العاهلية .

نزاع اللغات :

« إن أظهر صورة تشكلت بها مشكلة الأجناس فى النمسا والمجر هى النزاع القائم على استخدام اللغات المختلفة فى دوائر الحكومة وفى المدارس . وقد بلغ هذا النزاع فى بعض الأحيان مبلغا لا يخلو من السخف . فمن ذلك أن المجريين عند ما نالوا استقلالهم الذاتى فى سنة ١٨٦٧ أصروا على استعمال اللغة المجرية

(1) Lawrence Lowell, Governments Parties in Continentis Europe, vol ii, P 998 - 999.

دون غيرها فى مجلسهم النيابى ، واصروا كذلك على ألا يتكلم بغير اللغة المجرية وفدهم المرسل إلى فينا للمفاوضة فى المسائل الخاصة بالحكومة النمسوية (أى حكومة النمسا والمجر) . ولقد كان إصرارهم هذا مثلا من أمثلة البطولة ، لأنه أعجز البارون بُويست ، مستشار العاهلية النمساوية أن يخاطب الوفد من غير أن يستعين بمترجم ؛ ولأنه كان فى ذلك الوفد نفسه أعضاء كانوا أعلم باللغة الألمانية منهم بلغتهم المجرية . ولقد حدث مرة أن اضطر أحد أقطاب السياسة المجريين إلى التنحى عن عضويته فى اللجنة المالية ، قائلا إنه و إن كان يعرف اللغة المجرية معرفة تكفى لإلقاء خطبة معدة ، فإن علمه بها لم يكن يكفى للإجابة عن الأسئلة غير المنتظرة التى قد تعرض فى أثناء المناقشة . كذلك أجبر موظفو السكك الحديدية على استعمال اللغة المجرية . ومما يروى أن أحد نظار المحطات ومهندسا شوهدا مرة وهما يحاولان محاولة عنيفة أن يتفاهما باللغة المجرية ، فلما أعيتهما الحيلة اضطر بأخرة إلى خرق القانون ، فاندفعا يتكلمان بالألمانية التى كان كلاهما على علم تام بها . ولو نظر إلى النمسا أولئك الذين يندبون دائما زوال الروح الوجدانى ، واندفاع الناس اليوم وراء الأغراض المادية دون غيرها ، لرأوا فيها مثالا ناطقا بعكس ما يزعمون . فإن من الواضح أن السلوفيين مثلا تتحسن حالهم كثيرا من الناحيتين الفكرية والمادية ، لو أنهم كلهم تكلموا اللغة الألمانية ، فإن أطفالهم يجدون مجالا أوسع لترقية حياتهم ورفع مستوى تعليمهم ، وتنمية ثروتهم ، وزيادة نفوذهم ، إذا هم تخلوا عن لهجتهم الوطنية واستخدموا جميعا لغة تفهمها الدوائر التجارية والطبقات المثقفة فى النمسا فليس إلا لاعتبارات دنيوية بحتة أن يُقضى عليهم بأن ينتهجوا سبيلا يشبه السبيل التى تسير فيها الأجزاء التى تتكلم بلهجة لاتينية من ولاية جريسُون السويسرية ، حيث يجب على كل طفل أن يتعلم اللغة الألمانية فى المدرسة . ولكن جميع هذه القوميات النمساوية تشعر — وتشعر حقا — أن حياتها شعوبا متمايزة رهينة بمحافظتها على لغاتها القومية ، وهم على استعداد لأن يضحوا من أجل هذا الغرض بما قد يتاح لهم من الفرص لزيادة رخائهم المادى . »

ولقد أعلن التاريخ حكمه بعد الحرب العظمى مصدقا لما جاء في هذه الفقرة ؛ فإن هذه الشعوب قد أبقت على مشخصاتها ومميزاتها .

واحتفظت بروحها الوطني بما أبقت من لغاتها . وتنفست الحرب عن تلك الدول التي قامت على أنقاض العاهلية القديمة :

المجر ، وتشكوسلوفاكيا ، ويوجوسلافيا ، وبولندة ، وأصبحت النمسا نفسها بالقياس إليها دويلة تحتاج إلى من ينصرها ويدفع عن استقلالها . « ولو شاء ربك ، لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ؛ ولذلك خلقهم » .

مهدي علام